

"القيمة والبنية الثقافية في الخطاب الشعري في محافل الحج: دراسة في ضوء البنيوية التكوينية"

إعداد الباحث:

أحمد مسلم حامد الثمالي

جامعة القصيم

كلية اللغات والدراسات الاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها،

تخصص فلسفة الدراسات الأدبية

1447هـ-2026م



الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين القيمة والبنية الثقافية في الخطاب الشعري الذي أُنتج في محافل الحج، وذلك في ضوء منهج البنيوية التكوينية كما بلوره لوسيان غولدمان. وتتعلق الدراسة من فرضية مفادها أن الخطاب الشعري المحفلي لا يُفهم بوصفه تعبيراً فردياً معزولاً، بل هو نتاج رؤية جماعية للعالم تشكلت ضمن سياقات ثقافية ودينية واجتماعية وتاريخية متداخلة. وتعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في تتبع تمثيلات القيمة في الخطاب الشعري من خلال بنيته الجمالية القائمة على الرمزية والقداسة والاحتفاء بالجماعة، وبنيته الصراعية التي تجلت في ثنائيات كالتعرق والوحدة، والذل والإباء، والظلام والنور، بما يعكس وعياً ممكنًا يتطلع إلى التغيير والتجاوز. كما تكشف الدراسة عن دور البنية الثقافية الإسلامية، بما تحمله من موروث ديني ورموز عقيدة وصور وجدانية، في توجيه اللغة الشعرية وصياغة المعنى، وإعادة إنتاج الذاكرة الدينية والهوية الجماعية في فضاء الحج. وتخلص الدراسة إلى أن القيمة في الخطاب الشعري المحفلي هي ثمرة تفاعل جدلي بين الجمال والصراع، وأن البنية الثقافية تمثل الإطار المرجعي الذي تتجسد فيه رؤية العالم الجماعية، مما يجعل الشعر المحفلي في الحج خطاباً ثقافياً جامعاً يعبر عن وعي الأمة بذاتها وبالعالم.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الشعري – محافل الحج – القيمة – البنية الثقافية – البنيوية التكوينية – رؤية العالم.

مقدمة الدراسة:

تعددت الدراسات النقدية للنصوص الأدبية، وانطلقت إلى التجديد، لتواكب مراحل التطور الفكري، والنضوج المعرفي، ومتطلبات العصر، وتركزت كثير من الدراسات اللسانية على بنية الألفاظ والجمل، باعتبار الجملة هي الوحدة الكبرى، ثم جاءت الدراسات النصية لتوسع دائرة التحليل اللساني فيما يعرف بلسانيات النص، إذ انتقلت الدراسة من التركيز على بنية الجملة إلى دراسة النص، ثم جاءت مدارس تحليل الخطاب ومنها المدرسة البنيوية التكوينية لتدرس النصوص مع ظروف إنتاجها، إذ تتميز هذه المدارس عن التخصصات الأخرى التي تهتم بدراسة الخطاب بعدم اتخاذها من الانتظام النصي مداراً للبحث بحد ذاته، كما هو الحال في بعض التيارات اللسانية، كما إنها لم تتخذ من المقام التواصلية نقطة النقاء لأي عمل ينتمي إليه، مثلما يحدث في أبحاثٍ تنتسب إلى التداولية، وقد ركزت كل الاهتمام فيما يمثل نقاط التقاء بين الانتظام النصي ومقام التواصل (ينظر: عبيد، 2013: 26)، ولا تختلف دراسة الخطاب الأدبي عن غيره إلا بما يملكه الأدب من بعد جمالي، وسعة في الخيال، وقد اخترتُ أن يكون عنوان هذه الدراسة: "القيمة والبنية الثقافية في الخطاب الشعري في محافل الحج، دراسة في ضوء البنيوية التكوينية"؛ إذ كان للشعر الفصيح حضور ملموس بحضور أعلامه من الوطن العربي إلى تلك المحافل الحجية، فجل قصائدكم كانت عن قضايا العرب والمسلمين وهمومهم، إذ كانت تلك المحافل منابر للشعراء أمام الملوك والرؤساء وقيادات الوفود.

ونجد أن تلك النصوص الشعرية تتكون من علاقات لغوية داخلية وخارجية متحركة في بنيتها ونسيجها، إذ يمكن أن نعتبر النص شبكة تلتقي فيها نصوص غائبة متعددة (ينظر: عزام، 1996، 152)، وينتقل النص فيها -من وجهة نظر بنيوية تكوينية- من "النص التجريبي المباشر إلى الرؤية التصويرية وغير المباشرة، للعودة بعد ذلك إلى الدلالة الملموسة للنص الذي انطلقنا منه (غولدمان، 2010، 49)"، فالانطلاق من نصٍ حاضرٍ إلى نصوصٍ غائبةٍ يعيدنا مرة أخرى لدلالات تلك النصوص الحاضرة لمعاودة الانطلاق من جديد، ويمكن أن تدخل البنية النصية في بنى أوسع منها وأكبر هي البنى الاجتماعية والبنى النفسية والتي تندرج ضمن بنية تجمع كل تلك

البنى وهي البنية الثقافية ذات البناء الفوقي بكل مكوناته الثقافية والروحية والفلسفية والفنية والفكرية مما يوضح العلاقة بين النص ودخله والنص وخارجه، ويفتح باباً للتفسير بعد قراءة كل مستويات العلائق النصية المستندة على البناء الفوقي (ينظر: الجبارة، 2005، 75)، وهذا ما يحقق التفاعل بين النصوص السطحية الحاضرة والنصوص الغائبة المستندة على البنية الثقافية الشاملة.

ولذلك فإن الانتقال من مرحلة (الفهم) إلى مرحلة (التفسير) هو جوهر المدرسة البنوية التكوينية، وهو انتقال مما يقوله النص إلى البحث عن الأسباب العميقة التي تسببت إلى ما يقوله، كما إن البنية الفنية للنص ما هي إلا انعكاس رمزي لبنية أوسع تتجاوز الفرد إلى الجماعة، إذ إن العمل الأدبي تعبير عن وعي جماعي، وفقاً لظروف ثقافية أو اجتماعية محددة.

وبناءً على ذلك فإنه لا يفهم الشعر المحفلي في الحج باعتباره نتاجاً لشعراء متفرقين فحسب، بل بوصفه ظاهرة جماعية نشأت في فضاء يتداخل فيه الثقافي والاجتماعي بالتاريخي، والحج بما فيه من رموز القداسة والامتداد التاريخي والوظيفة الاجتماعية الجامعة، يجسد سياقاً تتكشف فيه الدلالات، وتتشكل فيه رؤية مشتركة للعالم، تبرز جلياً في الخطاب الشعري المحفلي الذي نشأ في هذا المناخ وتشكل من تلك الرؤية بصورٍ جمالية.

وتستند اللغة الشعرية في محافل الحج إلى المرجعيات الثقافية الراسخة، التي تستدعي رموز الهوية الإسلامية من مفرداتٍ وصورٍ تعبر عن الشعيرة الدينية والجماعة المؤمنة في تفاعلٍ مع التحولات الاجتماعية التي يشهدها المجتمع، والامتداد التاريخي الذي يترك أثراً في الوعي الجمعي، وبذلك فإن النص يغدو ملتقى لكل تلك التأثيرات المتعددة التي تضافرت لتشكيل بنياتها الدلالية.

مشكلة الدراسة:

تريد الدراسة اكتشاف البنية الثقافية انطلاقاً من قيمة النص الداخلية للشعر المحفلي في الحج وكشف طبيعة العلاقة بين القيمة وبين البنية الثقافية في الخطاب الشعري المحفلي باعتباره نتاج لرؤية العالم.

وتجيب الدراسة عن مجموعة من الأسئلة المرتبطة بمشكلة الدراسة من أهمها:

- ما القيمة وما أثرها في الخطاب الشعري المحفلي؟
- ما أثر البنية الثقافية في إنتاج الخطاب الشعري المحفلي؟
- ما أثر المدرسة البنوية التكوينية في الكشف عن طبيعة العلاقة بين القيمة والبنية الثقافية؟

أهمية الدراسة:

تظهر أهمية هذه الدراسة فيما يأتي:

- جدة موضوع الدراسة.
- هذه الدراسة من الدراسات البنوية التي يشترك فيها أكثر من تخصص.
- منهج البنوية التكوينية يمنح الدراسة بعداً ثقافياً واجتماعياً وتاريخياً، لشموليته وتكامله.
- الكشف عن العلاقة بين القيمة والبنية الثقافية في الخطاب الشعري المحفلي يفتح آفاقاً تحليلية للدراسة ويجعلها مرجعاً أدبياً وتاريخياً واجتماعياً.

- تنوع الشعراء وتعدد أفكارهم في كل عام يثري الدراسة ويعمقها.

أهداف الدراسة:

- 1- بيان القيمة وأثرها في الخطاب الشعري المحفلي؟
- 2- بيان أثر البنية الثقافية في إنتاج الخطاب الشعري المحفلي؟
- 3- بيان أثر المدرسة البنوية التكوينية في الكشف عن طبيعة العلاقة بين القيمة والبنية الثقافية؟

حدود الدراسة:

الزمان: محافل الحج، والمكان: مكة المكرمة.

مصطلحات الدراسة:

- الخطاب: " مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي الى ذات التشكيلية الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية او صورية قابلة لأن تتكرر الى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ (مع تفسيره اذا اقتضى الحال)، بل عبارة عن عدد محصور من العبارات التي تستطيع تحديد شروط وجودها(فوكو، 1987، 108)".
- القيمة: " القيم الحقيقية في مفهوم غولدمان ليست القيم التي يعتبرها الناقد والقارئ كذلك، بل هي القيم التي تنظم ضمناً مجموع عالم النتاج(غولدمان وآخرون، 1986، 46)".
- محافل الحج: هي محافل استقبال وفود الحجيج التي تقام سنوياً تحت رعاية حكام المملكة العربية السعودية.
- البنوية التكوينية: مدرسة نقدية تعتمد على ربط بنية النص الأدبي ببنية الفكر لدى الطبقة الاجتماعية التي يمثلها الكاتب، إذ يكشف عن رؤية العالم لدى تلك الطبقة انطلاقاً من بنية النص، ولذلك سميت بنوية، كما أضيفت لها لفظاً (التكوينية) أو (التوليدية) لأنها تعتمد على مراحل التكوين والتوليد التاريخي لرؤية العالم والعلاقة بينهما ومن أبرز أعلامها لوسيان غولدمان(عزام، 1996، 44، 43).

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات التي درست الشعر في الحج، ويمكن الإشارة إلى نمطين من تلك الدراسات:

الأول: ما كان فيه الشعر في الحج موضوعاً فرعياً، ومن ذلك:

- كتاب الرفاعي(1986): حضر الاستشهاد بالشعر في الحج استدلالاً على مكانة الأدب في الحج في عهود متعددة وأشير إلى اشعر في محافل الحج بالعهد السعودي.
- كتاب أبو زعنونة(1999): حضر الاستشهاد بالشعر في الحج استدلالاً على مكانة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والمدايح التي قيلت فيه في شعر الحج المحفلي.
- دراسة الترغي(2005): حضر الاستشهاد بالشعر في الحج في وصف رحلة حجية لبعثة الحج المغاربية وصفت فيها مشاهد استقبال الملك عبدالعزيز لوفود الحج الرسمية والقصائد التي قيلت في تلك المحافل.

واعتمدت تلك المؤلفات في منهجها على المنهج الوصفي.

الثاني: ما كان فيه موضوع الحج في الشعر السعودي موضوعاً رئيساً، ومثال ذلك:

- كتاب الدغيري (1436هـ): ومنهج الدراسة فيه يعتمد على المنهجية الموضوعاتية والانطباقية، وركز فيه المؤلف على شعيرة الحج وحضورها لدى الشعراء السعوديين، مع الإشارة إلى الشعر في محافل الحج.

منهجية الدراسة:

الدراسة التحليلية وفقاً لمنهج البنيوية التكوينية.

أولاً/ القيمة:

تكتسب القيمة في الخطاب الشعري في محافل الحج أهميتها الدلالية باعتبارها فعلاً ثقافياً وثمرتاً لوعي جمالي وتاريخي في آن معاً، إذ "إن إحدى المعايير الأساسية لقيمة النتائج - حسب غولدمان - هي مقدار تمثيلها لرؤية متناسقة للعالم على مستوى المفهوم، وعلى مستوى الصورة اللفظية أو الصورة الحسية (غولدمان وآخرون، 1986، 49)"، فالخطاب الشعري في محافل الحج لم يكن مجرد تقليد ديني أو اجتماعي بل كان تعبيراً عن وعي جمالي وفلسفي لصياغة موقفٍ قيميٍّ لرؤية متناسقة، برزت فيها تصوراتٍ لفظية وحسية عن قيمٍ مجتمعية كالهوية والوحدة والنهضة والقداسة، ولذلك فإن القيمة تتشكل من بعدين أساسيين متكاملين هما: البعد الجمالي ببنيته الرمزية من حيث المكان والحدث والشخصيات، والبعد الصراعي الذي يتجسد فيه التوتر بين الواقع والطموح.

البنية الجمالية وتشكيل القيمة:

بالنظر إلى النماذج الشعرية في محافل الحج فإنه يُلاحظ جملة من المظاهر الجمالية المتنوعة التي تتشكل من خلالها القيمة، ومن ذلك مشهد الحجيج الجماعي بصورة حركية متتابعة، والذي يشكل القيمة المتمثلة في الوحدة الدينية كروية متناسقة للعالم، وقد عبر عنه الشاعر فؤاد شاعر بقصيدته المحفلية، بقوله:

"أهلت بأفواج الحجيج المواكبُ
وخفت إلى البيت الحرام المناكبُ

تدانت بهم من كل صقعٍ محافلٌ
وفاضت بهم من كل حدبٍ نجائبُ (شاعر، 1967، 157).

ومن المظاهر الجمالية للقيمة صور العلو والسماء والنجوم باستخدام الاستعارات الكونية والتشبيهات الضوئية، إذ تتشكل قيمة السمو والرفعة الحضارية لتمثل رؤية عالمية طامحة، ومثال ذلك قول الشاعر محمد حسن عواد في قصيدته التي نُشرت في صحيفة أم القرى الرسمية بمكة المكرمة :

"فأنتم سماءٌ أعظم الله أمرها
وزينها بالنيرات تَنَسَّمُ

بأرجائها تبدو النجوم زواهاً
وحول حفافها النسور تحوُّمُ (أم القرى، ع433، 1351، 3).

ومن المظاهر التي شكّلت قيمةً عنوانها التأسيس والشرعية التاريخية خطاب المديح والإنجاز بالأفعال التقريرية، ونجده في محفلية الشاعر محمد حامد الفقي، إذ يقول:

"جددتم عهد النبوة مشرقاً فزهت بما جددتم الأيام

ورفعتم أعلام دين محمدٍ فتمايلت من زهوها الأعلام(أم القرى، ع738، 1357هـ، 8).".

وتتجلى صور الإشراق والضياء باستخدام دلالة النور والحركة لتعبر عن قيمة الأمل والتجدد وتشكل رؤية متفائلة للعالم في قصيدة ضياء الدين رجب، إذ يقول:

"أطلّ وفي برديه آمال أمةٍ وأشرق والدنيا حوالبه تسطع

فما هو إلا الحب والشوق والهوى وماهي إلا في المواكب (يوشغ)(أم القرى، ع1131، 1365هـ، 3).".

وتأتي المظاهر الجمالية للموسيقى والطير واللحن باستخدام صور سمعية وإيقاعية، لتشكل قيمةً يكسوها الإنسجام الروحي والجمالي في رؤية متناسقة للعالم عند الشاعر رياض هلال، إذ يقول:

"أنصت إلى الطير في أعلى مطائرهِ يكاد ينساب لحناً من بشائرهِ

ويملاً الأرض أنغاماً منسقةً ويستطيب الأغاني في ستائرهِ(أم القرى، ع1281، 1368هـ، 3).".

كما إن مظهر الترحيب والنداء باستخدام الأسلوب الطلبي التكراري يعزز قيمة الأخوة والتكافل والتي تشكل رؤية تفاعلية للعالم في محفلية الشاعر أحمد الغزاوي، إذ يقول:

"مرحبا بالحجيج في مهبط الوحي وفي مطلع الهدى والرشاد

مرحبا بالإخاء ينضح بالصدق وبالحب ثابت الأوتاد(العطوي، 1986، 1548)." .

كما يشكل المظهر الجمالي للمكان التاريخي باستخدام الذاكرة وربط الأحداث قيمةً للقداسة والمرجعية والرؤية الوجودية للعالم وهو ما عبر عنه الشاعر عمر أبوريشة بقوله:

"فعلى البعد لاح دير بحيرا ناشراً سر كاهن الكهان

وعلى القرب بيت أمنةٍ تنفض عنه ستائر الأحران(عكرمة، 2014، 359)." .

ويلاحظ فيما سبق أن الصور الضوئية والإيقاع الطويل والقداسة نتج عنها خطاب احتفالي ينقل الحدث إلى قيمة رمزية عليا، إذ إن الحج رمزٌ لانصهار المجتمع في كيانٍ روحي موحد، تتحول فيه الشخصيات والمكان والحدث إلى وهج دلالي يستمد منه الخطاب الشعري دلالاته الجمعية.

جدلية الصراع في الخطاب الشعري:

لم تكن المظاهر الجمالية وحدها من شكلت القيمة الدلالية في الخطاب الشعري المحفلي بل تجاوز ذلك إلى تشكيل القيمة من الصراع المتوتر بين الواقع والطموح ولذلك نجد أن الثنائيات المتصارعة (الذل والإباء والتفرق والوحدة والظلام والنور و...) قد حضرت في الخطاب، فهي المحرك الرئيس للنص من الداخل، وهي من تولد القيمة كوعيٍ ممكن تسعى المجموعة إلى تحقيقه، فالخطاب هنا هو خطاب وعيٍ مجتمعي برؤية عالمية تتطلع إلى التغيير ليستعيد المجتمع وهجه التاريخي، وليس خطاباً وصفيّاً مجرداً، ويمكن أن نتلمس تلك الجدلية في الصراع والقيمة الناتجة عنها عند استعراضنا للنماذج الشعرية كما يلي:

- الصراع بين الذل والإباء: نتج عنه قيمة مجتمعية شكلت رؤية عالمية هي الثورة والكرامة في قصيدة الشاعر سعيد فياض، إذ يقول:

"إن معنى الوجود أن نُبذ الذل ونُرسي على الإبا كبريانا

قد يُنسنا الحياة صباحاً ذليلاً ومساءً مستضعفاً ومهاناً (أم القرى، ع1626، 1375هـ، 8).

- الصراع بين الاجتماع والشتات: نتج عنه قيمة شكلت وعي ممكن هي الوحدة القومية عند الشاعر زاهر الألمعي، فيقول:

"يا فهد والأمل العظيم يقودنا في عالم يهفو إليك ويهرغُ

جمّع سرات العرب بعد شتاتها فلعلها تصغي إليك وتسمعُ (الألمعي، 1404هـ، 219، 220).

- الصراع بين الظلام والنور: نتج عنه قيمة التطلع إلى الإصلاح والتغيير الأمل وتشكلت كقيمة للعالم في محفلية الشاعر عبدالرحمن العشماوي، إذ يقول:

"يا زمني متى تغني الأمانني ومتى يُسعد الفؤاد البشيرُ

ومتى ينجلي الظلام عن الكون ويبدو للعالمين النورُ (العشماوي، 1993، 80).

- الصراع بين القرب والبعد: نتج عنه قيمة الانطلاق إلى تحقيق الأمنية وتشكلت كقيمة موحدة للعالم، وهو ما نجده في قصيدة ضياء الدين رجب إذ يقول:

"وأقبل يقضي البعد بالقرب عاطفاً ليرحم ما بالبين قد راح يصدغُ

قلوباً يراها لراعج الشوق عاصفاً فلا داؤها يُبرى ولا تنتصدغُ (أم القرى، ع1131، 1365هـ، 3).

- الصراع بين القوم والعودة والصراع بين المحب والعدو: نتج عنه قيمة هي الوصول إلى الهدف المتمثل في نجاح موسم الحج وعليه تشكلت رؤية للعالم، وهو ما نجده عند الشاعر محمد حسن عواد، في قوله:

"قدومٌ به يسمو المحبُّ المكرّم وعودٌ به يكبو العدو المنمّمُ

ومجدٌ على مغداكُم ومراحمكُم يلوحُ كما لاحت على الجوّ أنجمُ (أم القرى، ع433، 1351هـ، 3).

ولا ينفك الصراع وجدليته عن الجمال ومظاهره في تشكيل القيمة، إذ إن بينهما تكامل قيمي في الخطاب الشعري المحفلي، فالصراع بما فيه من وعيٍ ممكن ورؤية للعالم بضرورة التحول والتجاوز لا يقل أهمية عن الجمال الذي يعبر عن الهوية ويحتفي بالمنجز، فكلاهما يرى في الحج رمزاً للقداسة والوحدة والقوة والاستمرار التاريخي، ولا ينفصلان كما رأينا في النماذج انفصلاً واضحاً بل يتداخلان في بنية دلالية واحدة تبحث عن القيمة.

البنية الثقافية:

لا يتحقق فهم الدلالة العميقة للخطاب الشعري عبر الوقوف عند بنيته اللغوية والجمالية فحسب، بل لا بد من رده إلى حاضنته الثقافية التي تمدّه بالعناصر الرمزية الموجهة لمسارته الدلالية، إذ إن المنظومة الثقافية هي من يشكّل الخطاب الشعري، باعتبارها مرجعاً يستمد منه الشعر مفرداته ورموزه، والشاعر في محافل الحج لا يبتكر لغةً خارجةً عن سياقها الثقافي بل يتحرك في دائرة المخزون الديني والثقافي المشترك، النابع من ذاكرة دينية عميقة، مما يجعل النصوص الشعرية في تلك المحافل امتداداً لوعي جمعي وتمثلاً أدبياً وفنياً له.

وفي ضوء المدرسة البنيوية التكوينية فإن العمل الأدبي المحفلي في الحج ما هو إلا تعبير عن رؤية جماعية للعالم، تمثل إطارها المرجعي الثقافة الإسلامية، ولذلك فإن مفردات الشعيرة ووصف الاجتماع الإيماني وصور الطاعة تبدو جليّة في الخطاب الشعري المحفلي.

وعند الرجوع إلى نماذج شعرية محفلية في الحج نجد أن معجماً دينياً خالصاً صيغ لغتها تبعاً للثقافة الإسلامية، ومن الأمثلة على ذلك قصيدة لأحمد الغزاوي جاء فيها:

"مرحباً بالحجيج في أقطابه وبإهلاله وحسن مآبه
مرحباً بالنقاة في حرم الله وبالقانتين من كل نابه
مرحباً بالهداة في كل شعب في أساطينه وفي نوابه

وسلاماً على الملبين طراً في حمى الله رغبةً في ثوابه (أم القرى، ع1131، 1365هـ، 3).

فمفردات: (الحجيج والإهلال والنقاة وحرم الله والقانتين والملبين والثواب) حضرت مكثفة في سياق ثقافي عام ارتبط بمناخ الحج وطوقه، ولذلك فإن دلالة تلك الألفاظ لم تقتصر على الوظيفة الوصفية فحسب، بل استدعت شبكة من الدلالات الشعائرية، مما كوّن خطاباً شعرياً احتفالياً بصيغة جماعية يحتفي بالقداسة، إذ لم يكن تعبيراً فردياً من وجهة نظر شخصية، فالشاعر هنا يعبر عن وعي جمعي بلسان الجماعة المؤمنة المتوحدة تحت فضاء إيماني، وبذلك أضحت الثقافة الإسلامية عنصراً موجهاً للغة والصورة والإيقاع.

وبالرغم من ذلك فلا يمكن اختزال شكل الشعر المحفلي في الحج ثقافياً في النبذة الشعائرية التعبديّة فحسب، بل تبرز أيضاً الهوية الحضارية المتصلة بوعي الأمة والتاريخ واستحضار الإسلام واللغة والتراث كعناصر تجمع الهوية الجماعية، ومن بين النماذج الشعرية المحفلية التي برزت فيها الهوية الحضارية قصيدة الشاعر عطاء الأعظمي، وجاء فيها:

"نحن من أمة أطاع لها الدهر وعاشت في مهدها العلياء
أنجبتنا من المكارم أمّ نلتقي حولها فيحلو اللقاء
لغة الضاد أمنا جمعتنا وهي عزّ لنا وفيها الرجاء
وأبونا الإسلام فيه التأخي أين منه الجدود والآباء (أم القرى، 839، 1359هـ، 3)".

فالانتقال من فضاء النسك إلى فضاء الانتماء الحضاري يحول الحج من أداء شعيرة دينية إلى مناسبة جامعة للأمة لتستعيد الوعي بالانتماء الكلي للهوية الثقافية المؤسسة للتضامن، والمتجاوزة لحدود الجغرافيا والعرق، نحو رؤية للعالم عنوانها الوحدة والانتماء.

الموروث الديني والثقافي في تشكيل الخطاب الشعري

إذا بحثنا عن الركائز الأساسية للخطاب الشعري المحفلي فإننا نجد أن في مقدمتها الموروث الديني والثقافي، فلا يمكن فصل الخطاب الشعري عن ذاكرته الإسلامية المتركمة عبر القرون، والتي شكلت وعياً جماعياً للمجتمع، باعتبار الحج شعيرة دينية تاريخية تؤدي كل عام وليست مناسبة زمنية عابرة، إذ ترتبط بالممارسات التعبدية والقداسة والرموز الثقافية المستقرة في ضمير الأمة الإسلامية.

والنماذج الشعرية في التراث الشعري الإسلامي، التي لا تتفك عن ذاكرة الوعي الجمعي كثيرة، ومن ذلك قصيدة الفرزدق في مناسبة الحج أمام الخليفة هشام بن عبد الملك، مادحاً علي بن الحسين حين تنحى الناس عنه ليستلم الحجر الأسود، وقد تساءل أحدهم عند الخليفة من هذا؟ فقال الخليفة هشام لا أعرفه!، فقال الفرزدق: أنا أعرفه، فقال قصيدته التي جاء فيها :

"هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كُلِّهم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد حُتموا
وليس قولك من هذا بضائه
والغُرب تعرف من أنكرت والعجمُ (الفرزدق، 1987، 511)".

فالرموز المكانية كالبطحاء والبيت والحل والحرم موروثة لم تتغير ولم تندثر مدى الزمان.

ومن النماذج التراثية أيضاً المليئة بصورٍ من الممارسات التعبدية والقداسة والرموز الثقافية قصيدة عمر بن أبي ربيعة، التي جاء فيها:

"إني ومن أحرَمَ الحجِّجِ له
وَمَوْقِفِ الْهَدْيِ بَعْدُ وَالْبُدُنِ
وَالْبَيْتِ ذِي الْأَبْطَحِ الْعَتِيقِ وَمَا
جُلُّ مِنْ حَرِّ عَصَبِ ذِي الْيَمَنِ
وَالْأَشْعَثِ الطَائِفِ الْمُهِلِّ وَمَا
بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَقَامِ وَالرُّكْنِ
وَزَمَرِ الْجِمَارِ إِذْ رُمِيَتْ
وَالْجَمْرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بِالْبَطْنِ (ابن أبي ربيعة، 1934، 229)".

فكل تلك الصور والرموز توارثها الشعراء جيلاً بعد جيل، إذ لم يبدأ الشاعر المحفلي من الصفر، ولم يبتكر معجماً من العدم، بل انطلق من موروثٍ ديني وثقافي، وتحرك داخل منظومة ثقافية جاهزة، تكررت فيها مفردات دينية وثقافية، وبرزت فيها الممارسات التعبديّة والقداسة والرموز الثقافية، وبالرغم من تجذّر النسق الثقافي الموروث من خلال رمزية الحج الدينية، فإنه لم يظل جامداً، بل امتد إلى الشعر المحفلي، مع محافظة الشاعر على ذلك الموروث، وانفتاحه في الوقت نفسه على التجديد وإعادة الصياغة، بما يتناغم مع البنية الثقافية والاجتماعية التي يعيش في إطارها، ولا غرابة أن يقول الشاعر المحفلي قصيدةً يشكل خطابها الموروث الديني والثقافي، والنماذج على ذلك كثر، ومن ذلك قصيدة للشاعر أحمد الغزاوي جاء فيها:

مرحباً بالوفود من كل طائفٍ والمليين بين بادٍ وعاكفٍ

مرحباً بالهداة في كنف الله وبالخاشعين من كل واقفٍ

مرحباً في السماء والأرض يُهدى كشدى الروض واصطفاف المعازفِ

بالإخاء المتين في ألقِ الشمس وبالطهر في نفي المعاطفِ

بالألى استحقوا رضا الله سعياً من وراء البحار شتى الطوائفِ

أيها المحرمون بالحج طوبى لكم الحظ مقبلاً غير صادفٍ (أم القرى، ع1427، 1371هـ، 8).

ومن النماذج أيضاً قصيدة للشاعر فؤاد شاكر جاء فيها:

"إلى ذلك البيت الذي عزّ جانبه توافت جموع الحج تنرى مواكبه

فمن كل صوبٍ يمم البيت قاصداً ومن كل فجٍّ أدرك الحج طالبه

إلى حيث أمن الله يخفق ظله وتمتد حول المسجدين مضاربه (أم القرى، ع989، 1362هـ، 5).

فتكرار مفرداتٍ كالبيت والحرم والمليين والطائف والحج والإشارة إلى الطهر والتقى والنقاء شكّل بنيةً عميقةً للخطاب، وألبس الموروث الشعري دور الموجه والملمه الذي يستقي منه الشاعر المحفلي خطابه الديني والثقافي عند استحضاره للمعاني العقدية والروحية التي ترتبط بالحج، ويظهر أن الخطاب الشعري التعبدي المحفلي هو امتدادٌ للخطاب الموروث أكثر من كونه تعبيراً مفرداً، إذ يُعاد إنتاج الذاكرة الدينية في الخطاب الشعري المحفلي مما يشكل وعياً جمعياً مشتركاً.

أثر الثقافة الإسلامية في الصور والمعاني

يعكس اختيار شاعر لصورة بعينها في محافل الحج منظومة من القيم الثقافية والتصورات المتشكلة داخل الوعي الجمعي لجماعة الشعراء، إذ تعد الصورة وسيلة لنقل رؤية العالم وتكثيفها، وفي الخطاب الشعري المحفلي في الحج تبرز الصور الإسلامية ذات الطابع الروحي كالنور والطهر والصفاء والطريق مع تراجع ملحوظ للصور الحسية، ولا يفسر ذلك بوصفه نزعة جمالية أو فردية، بل يعبر عن

رؤية جماعية للعالم يقودها تغليب البعد الروحي على البعد الحسي، والاهتمام بما هو مقدس، ونماذج ذلك في الشعر المحفلي متعددة، ويمكن تقسيم أثر الثقافة في الصور والمعاني إلى قسمين:
الصور العقيدية وأثرها في الرؤية الفكرية الجماعية

لقد أسهمت الصورة في توجيه معاني القيم الإسلامية وتحديدها، وبنيت الدلالات حول عقيدة التوحيد والحق ودين الهدى والعلم، ورؤية العالم فيها تنطلق من الإسلام نظاماً شاملاً في العقيدة وتطبيق الشريعة والنظام والعلم ومن ذلك قصيدة الشاعر محمد بن اليماني الناصري، والتي جاء فيها:

"والحق يجلو للوفود بوجهكم شمساً بأنوار الحقيقة تشرقُ

وعقيدة التوحيد تتلى منكم ذكراً يغرب في الدنا ويشرقُ

والأصل في دين الهدى بك ثابتٌ والفرع منه بحسن هديك يورقُ

والحد أعمد في المخالف حدّه إذ كان للحد المقرر يخرقُ

والعلم مرفوع المنار ونوره كالشمس يُنجد في البلاد ويُعرقُ (أم القرى، ع688، 1356هـ، 2).

في هذا النموذج الذي تتجلى فيه رؤية العالم للإسلام عقيدة راسخة ونظاماً فقهياً وعلمياً، مما جعل الصور الشعرية أداة فاعلة في إنتاج القيمة الجماعية وترسيخها دلاليّاً.

الصور الوجدانية وأثرها في تشكيل الخطاب الروحي الجمعي

تتطابق البنية التصويرية للصور والمشاهد مع الوعي الجمعي للجماعة المؤمنة، التي ترى الحج تجربة تطهيرية وجدانية، مما يشكل خطاباً وجدانياً روحياً ذا أثر ديني، ومن النماذج على ذلك قصيدة الشاعر زاهر الألمعي، والتي جاء فيها:

"قلوبٌ على الإيمان شبّت فجاهدت ولبّت نداء الله تسألُهُ القربى

ولله في تلك المشاعر نفحة تفيض على الأنفاس من ريحها سحبا

عيونٌ إلى الرحمن ترنو ضراعةً ينهلُ فيضٌ من مدامعها سكبنا

حجيجٌ كموج البحر في زحمة التقى يُلبيه ربُّ العالمين إذا لبي

يطوفون حول البيت يدعون خشعاً ويعلو أريج الذكر كالمسك إذ هبّا (الألمعي، 1404هـ، 219، 220).

في هذا النموذج نجد أن للصور أثرٌ في تشكيل الخطاب الروحي الجمعي، إذ لا ينفصل التفسير الدلالي للصور عن السياق الثقافي المنتج لها.

التفاعل بين الشعر المحفلي والثقافة العامة

إذا سلمنا بأن الموروث الديني يشكل أساساً عقدياً للخطاب الشعري في محافل الحج ، فإن الثقافة العامة ببعدها الوطني والعروبي والإسلامي تشكل ملتقى إنساني تتلاقى فيه الشعوب العربية والإسلامية لتجسيد صور التضامن والوحدة، إذ إن محافل الحج ليست فضاءً تعدياً فحسب، بل فيها من صور التلاحم وتبادل الخبرات والهموم المشتركة ما يحقق التفاعل بين الشعر والثقافة العامة.

وتحتل قضايا الأمة الكبرى حيزاً كبيراً، يُظهر فيه الشعراء مفاهيم وحدة الصف واللغة المشتركة والأخوة والتاريخ الواحد، وتبدو القصيدة المحفلية وكأنها خطاباً جماعياً يعزز الانتماء والشعور بالهوية المشتركة، وعلى ضوء ذلك يمكن تقسيم صور التفاعل بين الشعر المحفلي والثقافة العامة إلى قسمين:

القيادة ووحدة الصف وأثرها الثقافي في الشعر المحفلي (توحيد الجزيرة نموذجاً)

لا تتحقق حاجة المجتمع إلى الأمن والانسجام الديني والمجتمعي إلا بالالتفاف حول نموذج قيادي يوحد الصف بعد الشتات، ويؤلف به الله بين قلوبهم، ويحميهم من أعدائهم، فيمنحه المجتمع الحب، ويدافع عنه، وينبri إلى ذكر محاسنه، وهو ما تحقق للملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود، إذ رأى فيه شعراء محافل الحج وغيرهم من الشعراء بأن قيادته تجسد رؤية عالمية تهدف إلى توحيد الصف العربي والإسلامي، وتحفل النماذج الشعرية في محافل الحج بالوعي الممكن للشعراء بتلك الرؤية، ومن ذلك قصيدة الشاعر عبدالله عمر بالخير، التي جاء فيها:

لك الحمد يا من ليس نوفيهِ حقه من الحمد إن رما الشمولَ أو الحصرًا

جمعت تراث العربِ بعد شتاتِهِ وأبدلتهم من بعد كسرهمُ جبرًا

وألفت ما بين القلوب فأصبح الجميع سواءً لا خداعاً ولا مكرًا

ووحدتهم صفًا يقود جموعهم إمامٌ تقيٌّ قد أردت به خيرا

فأمّن مختافاً وأطعم جائعاً وسار بهديّ ليس ضفأً ولا قسراً (أم القرى، ع537، 1353هـ، 7).

فحاجة المجتمع ملحة إلى قيادة سياسية تنقلهم من الشتات إلى الوحدة، ومن العداوة إلى الألفة، ومن الخوف إلى الأمن، ولذلك فإن وحدة الصف والالتفاف حول الملك عبدالعزيز بشخصيته القيادية هو الحل، وهو ما شكّل قيمة ثقافية جامعة.

قضايا الأمة المصيرية بوصفها رمزاً للوعي الجماعي (قضية فلسطين نموذجاً).

حضرت قضايا الأمة المصيرية في الخطاب الشعري المحفلي في الحج، وكان من أبرزها (القضية الفلسطينية)، إذ شكلت معاناة الشعب الفلسطيني، وضياح بيت المقدس رمزاً للوعي الجماعي، فالمصير المشترك للأمة العربية والإسلامية وقوة الانتماء للدين والعروبة هو المحرك لتلك القضايا، ، وما انفك الشعراء في محافل الحج وهم يعيشون في جو القداسة بجوار بيت الله الحرام أن يدفعهم الحنين للصلاة في بيت المقدس ، بعد أن يتم تحريره وعودته في وعي ممكن وهم يرون وفود الحجيج من كل فجٍ عميق يتوافدون إلى الحج على صعيدٍ

واحد، والنماذج الشعرية في محافل الحج زاخرة بتلك الآمال والتطلعات أن يقبض الله قائداً يعيد لهم حق الأمة المغتصب، ومن ذلك قصيدة للشاعر عمر أبو ريشة يخاطب فيها الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمهما الله، ويرى فيها أنه هو ذلك القائد، وجاء فيها:

"يا بن عبدالعزيز وانتفض العز وأصغى وقال: من ناداني؟

قلت ذاك الجريح في القدس في سيناء في الضفتين في الجولان

قلت ذاك الأبى يشهق بالصمت وتُرمى أقلامه بامتهان

يا بن عبدالعزيز تلك صحابي لك منها تحية الرحمن

عرفت فيك طلعةً من مروءات كبارٍ وأمنياتٍ حسانٍ

كن لها بسمة العزاء فقد طال عليهم تجهم الأحران (عكرمة، 2014، 364)."

فاحتلال فلسطين والأراضي العربية باعتبارها من القضايا المصرية للأمة رمزٌ للظلم الجمعي، وحضور مشاهد الاحتلال وتصوير المعاناة في الشعر المحفلي في الحج يدل على وحدة الوعي الإسلامي، وفيه تجاوزٌ للمكان من مكة إلى القدس، إذ يحضر في المشهد الثقافي ما هو ديني وما هو سياسي، مما يعكس وعياً جمعياً يتجاوز التجربة الفردية، ويكشف عن رؤيةٍ للعالم تكون فيها الأمة كالجسد الواحد.

وأخيراً خلصت هذه الدراسة إلى أن الخطاب الشعري الذي أنتج في محافل الحج لم يكن تعبيراً فنياً فردياً أو استجابة مؤقتة لمناسبة دينية، بل يُنظر إليه في إطار كونه خطاباً ثقافياً جماعياً تشكل ضمن رؤية متأسقة للعالم، عبرت عن وعي الأمة بذاتها وبقضاياها وتطلعاتها، وقد أظهرت القراءة التحليلية في ضوء البنيوية التكوينية أن القيمة هنا لم تكن زخرفاً جمالياً فحسب، بل جاءت كثمرة تفاعل بين البنية الجمالية بما تحمله من رمزية وقداسة واحتفاء بالجماعة، والبنية الصراعية التي تجلت في ثنائيات متقابلة في الواقع يسعى الوعي الجمعي إلى تجاوزها واحتوائها، كما بينت الدراسة أن الثقافة الإسلامية تمثل الإطار المرجعي الأعلى الذي تشكلت في ضوءه لغة الخطاب الشعري المحفلي بصوره ومعانيه، إذ أسهم الموروث الديني والرموز العقديّة والصور الوجدانية في إعادة إنتاج الذاكرة الدينية والهوية الجماعية داخل فضاء الحج، بوصفه فضاءً جامعاً تتكثف فيه الدلالات الدينية والتاريخية والاجتماعية. ولم يكن هذا الحضور الثقافي مجرد استعراض للتراث، بل جاء فاعلاً في توجيه المعنى وصياغة رؤية عالمية تؤكد الوحدة والقداسة والانتماء المشترك وفق منظور بنيوي تكويني.

لقد أثبتت الدراسة أن الشعر المحفلي في الحج قد أدى وظيفة ثقافية تتجاوز حدود الجماليات الشعرية، ليغدو خطاباً يعكس الوعي القائم في تمجيد المنجز الديني والسياسي والاجتماعي، ويعبر في الوقت ذاته عن وعيٍ ممكن يتطلع إلى التغيير والإصلاح واستعادة مكانة الأمة، ومن هنا تتجلى أهمية الدراسة من منظور بنيوي تكويني يصل النص بسياقه، ويكشف عن العلاقات العميقة التي تحكم تشكل القيمة والبنية الثقافية في الخطاب، وبناءً على ذلك يمكن القول إن الشعر المحفلي في الحج يمثل نموذج تفاعل ثقافي وتاريخي واجتماعي يدل على قدرة الخطاب الشعري على التعبير عن رؤية جماعية للعالم، تتجسد فيها القيم العليا للأمة، وتُعاد صياغتها في بنية جمالية ودلالية متماسكة، تجعل من هذا الشعر وثيقة ثقافية لا تقل أهمية عن قيمته الأدبية.

التوصيات:

في ضوء النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، يمكن تقديم جملة من التوصيات التي تسهم في تعميق البحث في الخطاب الشعري المحفلي وفي توسيع آفاق دراسته منهجياً وثقافياً، من أبرزها:

- 1- توسيع دائرة الدراسات البنوية التكوينية وذلك بالتركيز على دراسة الشعر المحفلي في المناسبات الدينية والوطنية المتكررة كما كان في هذه الدراسة.
- 2- ربط القيمة في الخطاب الشعري باعتبارها بنية دلالية بالبنى السياقية، كالبنية الثقافية والاجتماعية والتاريخية عند دراسة النصوص الشعرية، للكشف عن العلاقات العميقة في الخطاب الشعري.
- 3- تشجيع الباحثين على التقيب في الصحف والمصادر الوثائقية لما تحمله نصوصها الأدبية من قيمة ثقافية وتاريخية، ومن ذلك المصادر الخاصة بمحافل الحج.
- 4- عدم حصر الشعر المحفلي في إطار الشعر المناسباتي، بل التعامل معه بوصفه خطاباً ثقافياً يمتلك مقومات فنية ودلالية.
- 5- جمع المدونات الشعرية المحفلية المتناثرة في الصحف والمجلات في مجلد واحد وتصنيفه زمنياً أو بحسب الموضوعات؛ ليسهل على الباحثين مستقبلاً الدراسة والتحليل.

المراجع:

- ابن أبي ربيعة، عمر، (1934م)، ديوان عمر بن أبي ربيعة، ت: يموت، بشير، المطبعة الوطنية، بيروت.
- أبو زعنونة، إسماعيل حسين، (1999م)، الملك عبد العزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى من عام (1344هـ-1373هـ)، داره الملك عبدالعزيز، الرياض.
- الألمعي، زاهر بن عواض، (1404هـ)، ديوان علي درب الجهاد، ط3، جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
- الترغي، عبدالله مرابط، (2005م)، مشاهد استقبال الملك عبدالعزيز لوفود الحج الرسمية في مكة المكرمة، النموذج مشاهد رحلات الحج المغربية في الندوة العالمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، مج8، ع2، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- الجبارة، مدحت، (2005)، النص الأدبي من منظور اجتماعي، ط2، دار الوفاء لنديا للطباعة والنشر، الإسكندرية.
- الدغيري، إبراهيم علي، (1436هـ)، الحج في الشعر السعودي (1351هـ-1417هـ): دراسة موضوعية فنية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، بريدة.

الرفاعي، عبد العزيز، (1986م)، الحج في الأدب العربي: لمحات عابرة، ط2، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض.

شاكر، فؤاد إسماعيل، (1967م)، ديوان وحي الفؤاد، ط3، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة.

صحيفة أم القرى، (1351 هـ - 1375 هـ)، أعداد متفرقة، مكة المكرمة، رابط الموقع: <https://ncar.gov.sa/um-elqura>، نم
الاطلاع عليه في 2026/2/25م.

عبيد، حاتم، (2013م)، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن.

عزام، محمد، (1996م)، فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية،
سوريا.

العشماوي، عبد الرحمن بن صالح، (1400هـ)، إلى أمّتي، ط2، مطابع النهضة، الرياض.

العطوي، مسعد عيد، (1986م)، أحمد الغزالي وآثاره الأدبية، جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

عكرمة، مصطفى، (2014م) عمر أبوريثة شاعر أمة إطلالة وقطوف وقصائد لم تنشر سابقاً دراسة انطباعية، حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت.

غولدمان، لوسيان، (2010م)، الإله الخفي، تر، القاضي، د. زبيدة، الهيئة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق.

غولدمان، لوسيان وآخرون، (1986م)، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر، سبيلا، محمد، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،
لبنان.

الفرزدق، (1987م)، ديوان الفرزدق، ت: الفاعور، علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

فوكو، ميشال، (1987م)، حفریات المعرفة، تر: يفوت، سالم، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت: لبنان، الدار البيضاء: المغرب.

“Value and Cultural Structure in the Poetic Discourse of Hajj Assemblies: A Genetic Structuralist Approach”

Researcher:

Ahmed moslem hamed althemali

Qassim University

This study:

explores the relationship between value and cultural structure in the poetic discourse produced within Hajj assemblies, adopting Lucien Goldmann’s genetic structuralism as its theoretical framework. It is based on the premise that Hajj-related poetic discourse should not be approached as an individual artistic expression, but rather as a manifestation of a collective worldview shaped by intertwined religious, cultural, social, and historical contexts. Using a descriptive-analytical method, the study examines how value is constructed through the aesthetic structure of the discourse, particularly through symbolism, sacred imagery, and collective celebration, as well as through its conflictual structure expressed in binary oppositions such as unity versus fragmentation, dignity versus humiliation, and light versus darkness. These oppositions reveal a form of possible consciousness oriented toward transformation and renewal. The study also highlights the role of Islamic cultural structure—rooted in religious heritage, doctrinal symbolism, and emotional imagery—in shaping poetic language and meaning, and in reproducing collective memory and identity within the sacred space of Hajj. The findings indicate that value in Hajj poetic discourse emerges from a dialectical interaction between aesthetics and conflict, while cultural structure provides the referential framework through which a shared worldview is articulated, rendering Hajj poetry a unifying cultural discourse expressive of collective consciousness.

Keywords: Poetic Discourse – Hajj Assemblies – Value – Cultural Structure – Genetic Structuralism – Worldview.